"من رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية" لمحمد خير البقاعي

أ.د. فؤاد عبد المطلب

جامعة جرش

صدر مؤخراً كتاب "من رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية" عن مؤسسة التراث في الرياض – المملكة العربية السعودية بطبعته الأولى ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م) للأستاذ الدكتور محمد خير البقاعي من كادر جامعة الملك سعود في الرياض. يقع الكتاب في /٢١٦/ ص من القطع الكبير، ويتألف من مقدمة وسبعة فصول تصف رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية وتُعلق عليها، بالإضافة إلى كشّافات للأعلام والشعوب والقبائل والأماكن والبلدان في نهاية الكتاب.

حملت الفصول العناوين التالية: إقامة في رحاب الشريف الأكبر – شريف مكة المكرمة، رحلتي إلى مكة المكرمة، أخيل – أدريان بروست ليس له رحلة إلى الحجاز، الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، جاكلين بيرين وكتابها "اكتشاف الجزيرة العربية"، ناصر الدين دينيه وكتابه "الحج إلى بيت الله الحرام"، أوائل الكتب الفرنسية عن الدعوة الوهابية. وتأتي أهمية البحوث والترجمات التي تضمها دفتا هذا الكتاب والتي نُشر بعضها في دوريات علمية متخصصة، وكُتبت الأخرى خصيصاً لهذا الكتاب، من أهمية الكتابات والوثائق والرحلات الفرنسية إلى الجزيرة العربية، والتي لا تقل أهمية عن غيرها من الكتابات والوثائق والرحلات وخصوصاً البريطانية منها، والتي اتصفت بالطابع السياسي بسبب حرص البريطانيين على التمسك بطريق الهند، وعلى مصالحهم الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية. وقد اتسمت الوثائق الفرنسية بالطابع الثقافي أكثر، لكن الاعتماد عليها كان محدوداً في كتب المؤرخين العرب والسعوديين في أثناء محاولاتهم التأريخ للدولة السعودية الأولى والثانية، وعهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود. ونظراً لأن الكتابات الفرنسية لم تلق العناية التي تستحقها، وظلت حتى وقت قريب مغمورة وبعيدة عن متناول قراء العربية، لذلك ظهر هذا الكتاب ليشكل إسهاماً في سبيل تيسير قراءتها واطّلاع المهتمين عليها. إن هذا الكتاب يُسلط الضوء على جانب مهم من جوانب هذه البلاد العربية في الفترة التاريخية التي تتناولها هذه الكتابات والرحلات.

شكلت كتابات الأوروبيين الذين قدموا إلى الجزيرة العربية في فترات متتالية، مادة غزيرة للمؤرخين والباحثين، وتضافرت على ترجمتها ودراستها جهود فردية وجماعية، كان لها تأثير ملموس في إنجاز صورة

جلية عن تاريخ المملكة في تلك الفترات. ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الرحّالة الذين زاروا الجزيرة العربية، وخصوصاً الأماكن المقدسة فيها، كتبوا عنها انطلاقاً من دوافع مختلفة، فمنهم من كان منطلقا من انطباعات شخصية أو خلفيات سياسية أو رواسب دينية، تهدف بشكل أو بآخر إلى خدمة أهداف معينة، ومنهم من سعى إلى معرفة الحقيقة والواقع بدافع البحث والدراسة الموضوعية. ويبرز كتابنا من خلال جمعه عددًا من الرحلات الفرنسية في عمل واحد الأمر الذي يؤدي إلى إعطاء القارئ مجالاً للمقارنة والمقابلة فيما بينها، ويكشف له موضوعية بعضها، فضلاً عن زيف بعضها الآخر، ويُعمق النظرة في مختلف الوجوه. ولم يقتصر الجهد هنا على مجرد عرض كتابات الرحالة، بل تمت دراستها وتحقيقها والتعليق عليها بغية تحقيق الفائدة للقارئ العربي.

تجلى اهتمام الأوروبيين بالجزيرة العربية باهتماماتهم العسكرية والسياسية والدبلوماسية والثقافية المرتبطة على نحو مباشر بمصالح دولهم. ولعل أول خبر وصلنا عن الغربيين القدماء الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية هو الجغرافي المؤرخ سترابون (عاش بين عامي ٦٤ ق.م و٢١م) الذي رافق الحملة التي قادها صديقه القائد الروماني إليوس غاليوس، حاكم مصر أيام الإمبراطور أغسطس، والذي قاد حملة عسكرية على بلاد العرب متجهاً إلى الحجاز واليمن عامي ٢٥ و٢٤ق.م، وقد أخفقت حملته إخفاقاً ذريعاً، فما أن وصل إلى نجران حتى هُزمَ عند "نسكة" Nesca، التي يُعتقد أنها "خربة البيضا" الحالية. وفي نهاية القرن الأول الميلادي نجد رحّالة يونانياً مجهولاً يؤلف كتاباً بعنوان "الطواف حول بحر إريتيريا"، ويقصد به البحر الأحمر، تحدث فيه عن سواحل الجزيرة العربية ولم يهتم بالأراضي الداخلية.

وعبر فترة زمنية طويلة تالية لم ترد أخبار عن غربيين يتحدثون عن الجزيرة العربية، حتى حاول رينولد دو شاتيون، وهو أحد الأمراء الصليبيين وحاكم الكرك، غزو الأراضي الشمالية منها، ولكن محاولته باءت بالفشل، إذ هزمته جيوش صلاح الدين عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنوّرة. ولما حلَّ عصر النهضة الأوروبي ونشطت الكشوف الجغرافية، وأصبح الاطلاع من السمات الأساسية للنهضة الفكرية والأدبية والفنية، فكتب السير فرانسيس بيكون أن "السفر لدى اليافعين علم، ولدى الكبار خبرة".

كان البرتغاليون أكثر الأوروبيين توغلاً في بحر العرب وأكثرهم سيطرة على مراكز مهمة في المناطق الجنوبية والشرقية من الجزيرة العربية، حتى إنَّ أفونسو دي البوكيرك، القائد العسكري البرتغالي الذي ارتكب عدداً من المذابح على سواحل عُمان ومناطق مجاورة، وضع خطّة في عام ٩١٩هـ (١٥١٣م) للسيطرة على العالم الإسلامي بعد أن يُسيطر على عدن، ويدخل بسفنه إلى البحر الأحمر، وينزل في ميناء ينبع، ثم يشن

غارة بفرسانه المدرعين على المدينة المنورة، ويدخل الحرم الشريف، ويقوم بنبش رفات الرسول – صلى الله عليه وسلم – ونهب ترابه والعودة به إلى السفن، فإذا تم له هذا قايضه بكنيسة القيامة، ثم يدعو مليون متطوع أوروبي ليأتوا إلى الحبشة، وهناك من منابع النيل يقومون بتحويل مجرى النهر ليصب في البحر الأحمر، وبذلك تموت مصر والسودان عطشاً وجوعاً[1]، وفي عام ٩٠٩هـ (١٥٠٣م)، قام لود فيكودي فارتيما برحلة إلى الجزيرة العربية، ومر بالقاهرة وبيروت وطرابلس وحلب، وبقي في دمشق مدة عام لتعلم العربية، ثم توجه إلى المدينة المنورة ومكة وجدة مع قافلة الحج الشامي، ومنها توجه إلى اليمن وبلاد فارس وعاد إلى لشبونة في عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م). لقد كان الصراع العربي البرتغالي في القرن السادس عشر على أشده في الجزيرة العربية، وفي القرن السابع عشر أصبح الصراع بين البرتغاليين وشركتي الهند الهولندية والبريطانية بسبب تجارة البن مع اليمن. ثم دخلت فرنسا ما يمكن أن نسميه "الصراع على البن"، فأرسلت في مطلع القرن الثامن عشر بعثتين لبحث قضية استيراد البن من اليمن.

وظهرت فكرة إرسال بعثة أوروبية لدراسة الجزيرة العربية في عام ١١٧٢هـ (١٧٥٩م)، فكانت بعثة نيبور التي وصلت جدة في عام ١١٧٥هـ (١٧٦٢م)، ومن هناك توجهت البعثة إلى اليمن، وقضى أعضاء البعثة نحبهم في الطريق فلم ينج إلا نيبور الذي وصل على بومباي وحيداً، ولكنه عاد إلى الجزيرة العربية في عام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م) فمرَّ بعُمان سريعاً، وتوجه بعد ذلك إلى كوبنهاغن براً عبر فارس والعراق والشام وتركيا وبلدان أوروبا الوسطى، فوصلها عام ١١٨١هـ (١٧٦٧م)، وكتب قصة رحلته، وكتاباً يصف فيه الجزيرة العربية. وقد تحدث نيبور في كتابه "وصف الجزيرة العربية" عن نجد مع أنه لم يزرها، وتحدث عن الدعوة الإصلاحية، ويقصد الدعوة الوهابية، التي أخذت تنتشر في بداية القرن التاسع عشر. وكان رينو قد وصل الدرعية عام ١٢١٤هـ (١٧٩٩م)، وأخفق في مهمته السياسية المتمثلة في الحصول على وعد من الإمام عبد العزيز بن محمد لتأمين البريد الذي يمر في الطريق الصحراوي بين البصرة وحلب، وكان أول أوروبي يزور الدرعية، والوحيد الذي التقى الإمام عبد العزيز بن محمد. وقد قام السعوديون بضم مكة المكرمة عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م)، وكان نابليون الذي وصل على عرش فرنسا، يطمح إلى إعادة نفوذها في الشرق، ولعله رغب في معرفة آراء مسلمي الشرق العربي في الدعوة الإصلاحية التي نشأت في وسط الجزيرة العربية، فأوفد عميله الإسباني دومينغو باديا لبليخ الذي اشتهر باسم علي بك العباسي، ووصل إلى مكة المكرمة، وهي تحت حكم السعوديين، ودوَّن ملاحظاته بوصفه شاهد عيان على الأحداث في المنطقة قبل التدخل التركي المصري، وتوفي جنوب دمشق عندما حاول العودة إلى مكة المكرمة في عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م). كانت تلك أولى محاولات نابليون بونابرت لإعادة النفوذ الفرنسي إلى الشرق. وقد سبق لبونابرت أن حاول الاتصال بالأمير السعودي إبّان الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣ – ١٢١٦هـ

(١٧٩٨ – ١٨٠١م)، إلا أن محاولته لم تنجح. وتأتي في هذا الإطار بعثة لاسكاريس التي يشك الباحثون في صحتها[٢]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفرنسيين اهتموا بالمدونات التي ترافقت مع ظهور الدعوة الإصلاحية وانتشارها بعد التحالف الذي جرى بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود، فنجد بين عامي ١٢١٨ و١٢٣٣هـ (١٨٠٣-١٨١٨م) ستة كتب خصصها أصحابها كلياً أو جزئياً للحديث عن الدعوة، بينما لا يُعرف حتى الآن عن كتاب واحد كامل بالإنكليزية في هذه الفترة.

لقد كانت فرنسا من الدول الاستعمارية الكبرى في القرن التاسع عشر، ولم يكن الحجاز ضمن مناطق نفوذها المباشر، ولا قريباً من حدودها، ولكنها على الرغم من ذلك اهتمت به لمكانته الدينية ولوضعه الاستراتيجي وميزاته التجارية، ومع أن الحجاز كان من الناحية القانونية حينئذٍ تابعاً للدولة العثمانية، فإن المنافس الأكبر لفرنسا في المنطقة هو بريطانيا. فمنذ حملة نابليون على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م)، وعلى الجزائر عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) ازداد اهتمام الفرنسيين بالبحر الأحمر، وبلاد الشام نظراً لتوافد المسلمين سنوياً إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولاتساع الحركة التجارية، وعلى الرغم من إخفاقات الحملة الفرنسية على مصر إلا أن الفرنسيين استخدموا نفوذهم لدى محمد علي باشا في مصر للاستفادة من الحج ومن التجارة مع مصر والحجاز.

ونجد بعض المغامرين الفرنسيين القادمين إلى الحجاز عن طريق عملهم في الجيش المصري، أو في المصالح الطبية التابعة لمصر ودول أخرى. وكان ذلك قبل رحلة ليون روش بنحو عشر سنوات. فمنذ العام ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، وصل إلى مصر فريق من أتباع الفيلسوف الفرنسي سان سيمون، الذي دعا إلى الإيمان بالعلم وأسس حركة تأثرت بالفكر الاشتراكي سُمّيت فيما بعد بالسانسيمونية، وذلك بقيادة أونفنتان لنشر مبادئهم العلمية والاجتماعية والاقتصادية، وكان بعضهم يحلم بربط الشرق بالغرب، وبوحدة الأديان، وغير ذلك من الشعارات المثالية. وكان أحدهم يُدعى براكس، يعمل صيدلياً في الجيش المصري، ووجد نفسه بهذه الصفة في الحجاز نحو عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، واندمج في حياة الشرق حتى أنه تعلم اللغة العربية، واعتنق الإسلام، وأدى فريضة الحج، وزار سورية والقدس ومصر، وكتب رحلته المثيرة، واستفادت بلاده من تجربته فعينته في السلك الدبلوماسي، وانتهى الأمر به قنصلاً في هايتي.

وزار الحجاز في الفترة نفسها عدد آخر من المغامرين الفرنسيين، منهم تاميزييه، الذي كان كاتب البعثة الطبية في الجيش المصري، وكان يتطلع إلى زيارة مكة المكرمة بإيعاز من حكومته، وقد تعرف على أمين مفتاح الكعبة، وكتب رحلة نشرها عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، بعنوان: رحلة في الجزيرة العربية (وقد ترجم الرحلة بمجلديها من نص إنكليزي د. محمد آل زلفة بعنوان: رحلة في بلاد العرب، ج٢، الحملة

المصرية على عسير: ١٢٤٩هـ - ١٨٣٤م (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)؛ والجزء الأول، الحجاز، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ (٢٠٠١م). وفي عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) غامر ثلاثة من الفرنسيين السانسيمونيين بدخول جدة: منهم الطبيبان "كانيا" و"لاشيز" والسيدة "كوسيدير" التي قيل إنها كانت متخفية في زي رجل ولكن مهمتهم لم تنجح، وعادوا إلى بلادهم، ثم استمرت علاقة فرنسا بمحمد علي بعد ذلك، حتى جاء ليون روش في عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م).

لم تكن صلات فرنسا بالحجاز كما هي صلات بريطانيا به، ومع أن فرنسا كانت موجودة في ظاهر الأمر، وتمثل ذلك في حضور كورتلمون تدشين سكة حديد الحجاز وزيارته المدينة المنورة في عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، ونشر صور الحرمين الشريفين، فإن النفوذ الفرنسي ظل هامشيا حتى عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م). وكان مفهوما أن تمنع فرنسا الجزائريين من الحج بعد دخول الدولة العثمانية الحرب ضدها، وتمكنت من الحصول على فتاوى ونصائح من بعض علماء الجزائر ومرابطيها "رجال التصوف" تُصرح أن الدولة العثمانية قد انحرفت عن الإسلام، وأن السلطان لم يعد خليفة المسلمين، لأنه كان واقعاً تحت تأثير ألمانيا. ولكن تفاهم الشريف حسين مع البريطانيين على الثورة ضد الدولة العثمانية، وإعلان استقلال الحجاز جعلا فرنسا تبادر إلى إرسال بعثة عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، أُطلق عليها بعثة بريمون. ضمت هذه البعثة بالإضافة إلى العقيد الفرنسي بريمون بعض المدنيين والعسكريين الجزائريين، وكانت فرنسا تريد بهذه البعثة منافسة بريطانيا في الحجاز بعرض الأسلحة والمدربين المسلمين (الجزائريين) على الشريف. وتمثلت البداية بفتح دار للضيوف (الرباط المغاربي) في مكة المكرمة باسم فرنسا، وبإقامة بعثة دائمة، وتقديم الأسلحة والهدايا. وكان رئيس البعثة الدينية هو قدور بن غبريط، ورئيس البعثة العسكرية هو الشريف بن العربي المعروف بالعقيد، ثم التحق بهذه البعثة مصطفى الشرشالي أحد أساتذة المدرسة الثعالبية في الجزائر. لكن التنافس مع بريطانيا، على الرغم من التحالف الاستعماري بين الدولتين، وطمع فرنسا بالاستيلاء على سورية، جعلت النشاط الفرنسي في الحجاز محدوداً، بل إن بعثة بريمون أخفقت، ورجعت إلى الجزائر بعد نحو عام، وتلاه شارل ديدييه في عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م)، ووجد ديدييه في جدة قنصلا فرنسيا، كان قد جاب البحر الأحمر وتحدث عن شاطئيه. إنه روشيه ديريكور الذي توفي عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م)، خلال إقامة ديدييه في جدة، وجاء بعد ذلك كورتلمون في عام ١٣١١هـ (١٨٩٤م).

يعرض الكتاب على التوالي: رحلة شارل ديدييه، ثم رحلة كورتلمون إلى الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر بعد ديدييه وليون روش، ورحلة أدريان بروست الطبيب الفرنسي ووالد الأديب المشهور مارسيل بروست (١٨٧١-١٩٢٢م)، وكتابه وملابسات تأليفه، وكتاب "اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم" للباحثة الفرنسية جاكلين بيرين الذي صدر في عام (١٩٥٨م)، وأصبح بعد

ترجمته من أهم المصادر عن رحلات الغربيين إلى الجزيرة العربية، ورحلة ناصر الدين دينيه إلى مكة المكرمة وكتابه بخصوص ذلك، وأوائل الكتب الفرنسية التي صدرت عن الدعوة الوهابية التي ذكرها د. منير العجلاني في كتابه "تاريخ البلاد العربية السعودية" بأجزائه الأربعة، قام المؤلف بالتقديم للرحلات بمداخل مترجمة مع شروح وتعليقات وحواشٍ منفصلة حول السيَّر الذاتية والعلمية للشخصيات الواردة في نصوص الكتاب ومؤلفاتهم باللغتين العربية والأجنبية الأصلية بلغة رصينة واضحة قريبة من القارئ العربي، كما ضبط أسماء الأماكن والقبائل والأعلام وأوردها في الكشافات الملحقة. يسلط هذا الكتاب المزيد من الضوء على الرحلات المكتوبة بالفرنسية، سواء أكان من قام بها فرنسيون بالانتماء أم بالولاء، وذلك بالإشارة المقارنة إلى الرحلات المكتوبة بالإنكليزية التي حظيت بالكثير من الدراسات والتحليلات. وقد جاء ذلك من باحث ومترجم متمكن غدا مرجعًا موثوقا في تاريخ الجزيرة العربية والدعوة الوهابية. لقد أصبحت الرحلات من دون شك مصدرا من مصادر التأريخ، وإن كان هناك تفاوت في مدى دقة المعلومات التي يكتبها الرحالة، وفي درجة تأثيرها بالمهمات المسندة إليهم، أو في الرؤية الإيديولوجية للكاتب. إن صح هذا، فإن معرفة تلك المعلومات وتحليلها تظلان من الأعمال البحثية المتخصصة الحيوية التي يتوجب على الدوائر الثقافية والأقسام الجامعية، وجميع المعنيين بالتاريخ العربي، قديمه وحديثه، أن تنشرها وتوفرها للباحثين العرب.

---

[١] انظر: د. فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م، ص ١٦٧-٢١٧-٢٤٤

[٢] انظر: رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، تحقيق د. يوسف شلحد، دار طلاس، دمشق ١٩٩١.